قبل اَن تحاسبوا

جعفر البیاتی

www.ketab.ir

بیاتی، جعفر، ۱۳۳۲-
قبل ان تحاسبوا / جعفر البیاتی. - مشهد: مجمع البحوث الإسلامیة، ۱٤۲۸ق. = ۲۰۰۸ = ۱۳۸۷.
۱۷۵ ص.
ISBN 978-964-971-197-3
فیپا.
کتابنامه: ص. ۱٦۷ - ۱۷۵.
۱. خود سازی. ۲. تقوا. ۳. اخلاق اسلامی. الف. بنیاد پژوهشهای اسلامی. ب. عنوان.
۲ق ۹٤ب / BP ۲۵۰ ۲۹۷/٦۳
کتابخانه ملی ایران ۱۱۲۸٦۵۹

قبل ان تحاسبوا

جعفر البیاتی

الطبعة الاولی ۱٤۲۸ق / ۱۳۸۷ش / ۲۰۰۰ نسخه / الثمن ۱٦۰۰۰ ریال
الطباعة: مؤسّسة الطبع و النشر التابعة للآستانة الرضویّة المقدّسة

مراکز التوزیع
مجمع البحوث الإسلامیّة، الهاتف والفاکس (مشهد) ۲۲۳۰۸۰۳، ص.ب ۳٦٦ ـ ۹۱۷۳۵
شرکة بهنشر، (مشهد) الهاتف ۷ ـ ۸۵۱۱۱۳٦ الفاکس ۸۵۱۵۵٦۰

E-mail:info@islamic-rf.ir Web Site: www.islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

www.ketab.ir

مقدّمة الناشر

النفس ميدان الإنسان الأوّل في المُعايَشة والتعامل في كلّ لحظة من اللحظات . وقد فطرها الله تبارك وتعالى في دواخلنا لتكون مَرْقاة للإنسان تلقاء نور الحقّ والحياة التوحيديّة الصافية البهيجة المنزَّهة من الكدر والأحزان . والنفس لَصيقةٌ بالمرء عائشة معه وهو عائش معها لا يملك عنها فَكاكاً ، ومن هنا كان لابدّ أن تتنوّر من داخلها لتتّصل بالقلب والروح اتّصالاً نورانيّاً ينقلها من حالة وجودها «الخام» إلى عالَم الطمأنينة والسَّكينة والاستقرار الوجوديّ النفيس ، وعندئذٍ تدخل في فجر «النفس المطمئنّة» التي جاءت بذكرها سورة الفجر من القرآن الكريم.

إنّ المكوث الطويل مع النفس ـ وهي على علّاتها وزلّاتها ـ إنّما هو مصدرٌ لعذاب الإنسان ومصدر لتقلّبه في معاناة عقيمة ، وسببٌ لكثير من المرارات . كما هو سبب مباشر لكثير من العلل النفسيّة والأمراض الجسديّة على السواء . واهتمام المرء بمراقبة نفسه ـ بما تيسّر له ـ والأخذ بيدها أخذاً رفيقاً للسير في الدرب الذي يقترب به من الله سبحانه ، من شأنه أن يُغْنيَ البشريّة عمّا انتشر في عصرنا من

www.ketab.ir

الأقراص المهدِّئة والمصحّات النفسيّة وعيادات الأطبّاء النفسانيّين، بل يُغنيها حتّى عن المصحّات العصبيّة والعقليّة. وعندئذٍ يترفّع الواقع العلميّ والبحثيّ عن تلك الدراسات النفسيّة المتكثّرة القائمة على الرؤية الغربيّة للإنسان، والتي كأنّما هي تطوف طوافاً متواصلاً مكروراً في دائرة مُفرَغة لا تخرج منها ولا تتحرّر، لتنظر إلى الشفاء الواقعيّ الذي يحتاج إليه الإنسان المعاصر. إنّ العلاج الأكيد إنّما يكون بالإيمان التوحيديّ النزيه المنوَّر بنور اللّه والقرآن ونور النبيّ وأهل بيته الهادين صلوات اللّه عليهم أجمعين، وهو نور حاضر سخيّ ميسور لمن يطلبه، وما علينا إلّا الطلب والعزم ـ بمعونة اللّه ـ على الانفتاح عليه. ويأتي ما اصطُلِح عليه باسم «محاسبة النفس» تدريباً مهمّاً في مسيرة الإنسان إلى حرم النور الإيمانيّ الزاهر، حيث الفوز والربح المستديم. وهذا المعنى المتألّق أوجزه الإمام الرؤوف عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في هذه الحقيقة التي علّمَنا إيّاها بقوله الكريم: «مَن حاسَبَ نفسَه رَبِح، ومَن غَفَل عنها خَسِر»[1].

وهذا النهوض الداخليّ للإنسان هو الخطوة الأساسيّة الأُولى التي يخرج بها إلى الناس والمجتمع، فيكون عنصراً طاهراً نظيفاً فاعلاً في البُنْية الاجتماعيّة، وفي الروابط التي تشدّه إلى ما حوله من أفراد وأُسرة ومؤسّسات، ممّا يترك أثره البيّن في الحاضر وفي مستقبل الأجيال.

---

١ ـ العُدد القويّة، لعليّ بن يوسف الحلّيّ ٢٩٢ / ح ١٨ ـ عن: كتاب الذخيرة، وعنه: بحار الأنوار ٧٥: ٣٥٢ / ح ٩.

www.ketab.ir

إنّ الإنسان ـ بوصفه أغلى كائنٍ خلقه اللّه تبارك وتعالى ـ هو الذي يحمل الأمانة الإلهيّة التي تَعمُر الحياة وتنقّي الروابط، بعد أن تكون قد نَقَّت الفهم وطهّرت الرؤية وصبغت بلونها المُشرِق الدوافعَ والأعمال.

وهذا الكتاب ـ عزيزي القارئ ـ تَطوافٌ في حدائق التعامل مع النفس في مراقبتها ومحاسبتها، وتعليمها وتدريبها؛ للتقوّي والاشتداد من الداخل، ولتتعلّم النظر إلى فوق، بدلَ الانكباب إلى الأسفل والإخلاد إلى تراب الأرض. إنّ الصعود الإنسانيّ إلى الأعالي هو هدف هذه السياحة في حدائق محاسبة النفس، وللأخذ بها إلى طريق الصلاح والهداية والسعادة.. فلنقفْ، ولنتأمّل من خلال هذه النافذة المُطلّة على رحمة اللّه ورأفته.

*****
***
*

www.ketab.ir

المقدّمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]

كلٌّ يجدُ نفسه على وجه الأرض، وبعد أن تتفتّق عيناه عن البصر، وعقله عن البصيرة، يبدأ السَّير في مسارب الحياة، ويبتدئ الاختيار والاختبار، ويشرع الإنسان في السلوك: مرّةً يخوض المياه، ومرّة يعاني صعود الجبال، ومرّةً أُخرى ينزل إلى الوديان أو يرتقي الهضاب أو يعثر بين الحفر أو يستريح. وتصادفه خلال الطريق الأمواجُ والرياح، والخطوط المستقيمة والملتوية، والأراضي المتعرّجة والمنبسطة، والحدائق والبساتين، وخرائب الأقدمين، والقبور والفيافي والصحارى، والسُّحب وأشعّة الشمس وأنوار القمر والكواكب، وخيام اللّيل المظلم. ويلتقي بالسائرين مِثْلَه مرّة ويفترق عنهم، ويفتقد البعض ويتعرّف على بعض، ويغيب عنه

---

١ ـ سورة الحشر: ١٨.

www.ketab.ir

الأقربون، ويدنو منه الأبعدون.

وبعد سنوات أو عقود من السنين.. ألا يجدرُ بالمرء أن يتنبّه وأن يفيق من غفلةٍ طويلة كانت تلفُّ حياته، فيعود إلى نفسه يسألها: إلى أين؟ حتّى مَ؟ مِن أين؟ وكيف، ولماذا، وإلى مَن وممَّن وعند من؟!

أجل، ألا يحقّ عليه أن يستوقف نفسه بنفسه، ويتساءل إلى أين هذا الطريق؟ وإلى أين ينتهي المسار؟ ثمّ ماذا؟! آمنتُ يقيناً أنّها حياة أعيشها، فهل مِن بعد هذه الحياة حياةٌ أُخرى؟ ثمّ ماذا فيها؟ وآمنتُ أنّ حياتنا فيها عمل، وبعد كلّ عمل محاسبة، فهل بعد هذه الحياة عَرْضٌ وحساب، وثوابٌ وعقاب؟!

وإذا كنتُ مؤمناً بالعُقبى والرُّجعى، فماذا أعددتُ لذلك اليوم؟ هل راجعت سجلَّ حسابي، ووازنت بين الذنوب والصالحات، بين السيّئات والحسنات؟ هل أنا مستعدٌّ للقاء الله تعالى؟ وهل أنا مقبلٌ عليه بالتوبة ورجاء المغفرة، وبالباقيات الطيّبات ممّا يرضاه من الصالحات؟ أم أنا قادم عليه بجبلٍ من الذنوب، وكتابٍ ثقيلٍ من الآثام والعيوب؟! وقادم عليه -وهو المنعم- بالمعاصي، لا حياءً صدّني عن مخالفة أوامره! وهو الذي أغرقني بالنّعم في الدنيا، وأعدّ لي ممّا لا رأت عينٌ ولا سمعت أذنٌ ولا خَطَر على قلب بشر، في الآخرة، وهو الرؤوف الرحيم، الودود اللّطيف الكريم.

وبعد، فإلى أين تنقلنا أقدامنا في هذه الدنيا؟ إلى مواضع الطاعة، أم إلى مواقع المعصية!

يبدأ الإنسان أحياناً بفكرة، ويرسم لها هدفاً، ويتوخّى لها غاية،

www.ketab.ir

ويسلك السبيل نحو هذه الغاية، ثمّ يمضي، وإذا به خلال الطريق يستوقفه أمرٌ ثانويّ لا اعتبار له ولا أهمّية تُذكر، فيستغرق معه حتّى ينسى هدفَه الأساس. أو قد تستهويه هوايةٌ زُيِّنت له ليست في حساب هدفه الأوّل، فإذا به قد انحرف عن المسار، وبدأ يخرج عن مسلكه الذي اختطّه لنفسه، ثمّ يتلفّت وإذا به قد ضاع عليه خطُّ الطريق الذي شرع بالسير فيه نحو الهدف.. ثمّ ضاع الهدف!

على سبيل المثال، نجد المرء يُقْبِل على العلوم يغترف منها بتلهّف وشوق؛ طلباً للمعرفة وانتفاعاً بها في الحياة الدنيا والآخرة، فإذا حفظ شيئاً وأحاط ببعض الجزئيّات، واختزن بعض المعلومات، تسلّل إليه حبُّ السمعة والرياء، ونما في نفسه حبُّ الظهور والشهرة، وبناء الكيان الذاتيّ في المجتمع. ومضى يطلب العلم للمجادلة والمِراء، حتّى تشتطَّ به النوايا المنحرفة فتخرجه من الخير إلى الشرّ، ومن الحقّ إلى الباطل.

وقد يتحدّث شخصان حول موضوع أو فكرة معروضة للتقييم، فيتناولانِ أطراف الحديث.. فإذا بهما بعد لحظات أو دقائق يتعرّضان لإخوانهما بالطعن والغيبة، والتجريح والتقبيح، دون أن يحترزا عن الاستغراق في الغفلة الآثمة، أو يفترضا سلامة النيّة في الآخرين ووجوب حملهم على سبعين مَحْمل.

ومن هنا كان لابدّ من انتباهةٍ تستيقظ فيها البصيرة والتقوى، وتحيا فيها الموعظةُ والتذكرة. وذلك كلّه يقتضي: المراقبة، والمحاسبة، والمعاقبة أو المعاتبة، حتّى لا تَطيشَ النفس ولا تغفل.

www.ketab.ir

محتويات الكتاب

مقدِّمة الناشر ٥

المقدِّمة ٩

الفصل الأوّل ..... ١٣ ـ ٢٨

خطر الاستهانة بالذنوب ١٣

اليَقَظة .. الوعي ١٦

في محكمة النفس ١٨

الإمهال نعمة .. والانتباه نعمة ٢٠

الستر نعمة .. والمحاسبة نعمة .. والتمادي نقمة ٢٣

فرصة .. لا ندري متىٰ تنقضي ! ٢٥

الفصل الثاني ..... ٢٩ ـ ٦٤

الحقيقة المنسيّة ٢٩

واختلف الناس في الموت !! ٣٢

الوعي النافع ٣٤

الاستعداد للموت والتوبة ٣٧

الحُجُب المانعة للتوبة ٤١

مُورِثات الندامة .. وعوائد الملامة ٤٥

www.ketab.ir

وقفة تذكُّر .. وتفكّر ٦٢
الفصل الثالث ..... ٦٥ ـ ٨٧
تحت الرؤية الشهوديّة ٦٥
المحاسبة .. والمجاوبة ٦٩
أنفسنا أوّلاً .. ثمّ ٧٠
الأمر .. دون الائتمار ! ٧٩
المداهنة مع النفس ٨٢
الفصل الرابع ..... ٨٩ ـ ١٠٦
المحاسبة قبل حلول الحساب ! ٨٩
من لوازم المحاسبة ٩٢
فَلْتَنظُرْ نفسٌ ! ٩٧
المراقبة .. المحاسبة .. الجزاء ١٠١
الفصل الخامس ..... ١٠٧ ـ ١٢٢
مع حالات النَّفْس ١٠٧
إذَن .. لابدّ من العلاج ١١١
العتاب .. قبل العقاب ١١٨
الفصل السادس ..... ١٢٣ ـ ١٣٩
الاستيقاف ١٢٣
عودة إلى النفس ١٢٦
اقتضاء ١٢٩
من موازين المحاسبة وثمارها ١٣١
الفصل السابع ..... ١٤١ ـ ١٦٦
كيف نحقِّق المُحاسَبة ١٤١
استشعار المراقبة الإلٰهيّة ١٤٤

www.ketab.ir

التفكير الجادّ ١٤٥
الإقناع ١٤٩
تشويق النفس ١٥١
بذل السعي ١٥٥
الإسراع ١٥٦
وأخيراً ١٦٠
تذكرة عاجلة ونحن في وداع ١٦٤
مصادر الكتاب ١٦٧

www.ketab.ir